الملائكة

جاء فى تفسير القرطبى . شرحًا للآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين بعد المائة من سورة آل عمران : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

قال بعضهم إن الملائكة كانوا يقاتلون مع المسلمين ، وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة لأن كل موضع أصابته ضربتهم اشتعلت فيه النار . حتى إن أباجهل قال لابن مسعود : أنت قتلتنى ؟! إنما قتلنى الذى لم يصل سنانى (أى حد سيفى) إلى سنبك فرسه (أى إلى حافر فرسه) ، وإن اجتهدت . وإنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ، فكل عسكر صبر واحتسب ، تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون . إنما يكونون عدداً أو مدداً . فقال بعضهم : إنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة ، أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ . فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر ، وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت ، والأول أكثر » .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف فذلك قوله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، وقوله : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) ، وقوله :

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا : يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله فأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم . فهذا كله يوم بدر . .

قال الشعبي : بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فأنزل الله تعالى : (ألن يكفيكم — إلى قوله مسومين) . فبلغ كرزاً الهزيمة . فلم يمدهم ورجع . فلم يمدهم الله أيضاً بالخمسة آلاف وكانوا قد مدوا بألف . وقيل إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدهم أيضاً في حروبهم كلها . فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب . فأمدهم حين حاصروا قريظة . وقيل إنما كان هذا يوم أحد . وعدهم الله المدد إن صبروا . فما صبروا فلم يمدهم بملك واحد ولو أمدوا . لما هزموا .

ثم قال : ا

نزول الملائكة سبب من أسباب النصر . لا يحتاج إليه الرب تعالى . وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله . وليثق به . فهو الناصر بسبب ، وبغير سبب : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قدقلت من قبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا) . ولا يقدح ذلك في التوكل ، وهذا رد على من قال : إن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء ، لا للأقوياء فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء وهذا واضح » .

وجاء في تفسير المنار :

« وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال : إن الملك يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط ، فإذا أحضر هو يوم

يدر فأى حاجة إلى مقاتلة الناس الكفار ؟ وبتقدير حضوره . أى فائدة من إرسال سائر الملائكة ؛ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

« وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك . ولأنه خلاف قوله : (ويقللكم فى أعينهم) ؛ ولو كانوا فى غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد فى قلوب الخلق ولم ينقل ذلك ألبتة » .

« وعلى الثانى ؛ كان يلزم جز الرؤوس وتمزق البطون وإسقاط الكفار من مشاهدة قاعل ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات ؛ فكان يجب أن يتواتر ويشتهر من المسلم والكافر ، والموفق والمخالف .. وأيضاً أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكل ؛ وإن كانوا أجساماً لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول .

وجاء فى تفسير المنار : نقلا عن الشيخ محمد عبده :

الملائكة خلق غيبى لانعرف حقيقته ، وإنما نؤمن به بإخبار الله تعالى الذى نقف عنده ولا نزيد عليه . ثم قال : إن إلهام الخير والوسوسة بالشر ؛ مما جاء فى لسان صاحب الوحى صلى الله عليه وسلم كل منهما محله الروح ؛ فالملائكة والشياطين إذن تتصل بأرواح الناس ، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا ؛ فإنما تتصل بها عن طريق أجسامنا ، ونحن لانحس بشىء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعى الخير من النفس ، فإذن هى من عالم غير عالم الأبدان قطعاً . والواجب على المسلم فى مثل هذه الآية : الإيمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقت لها القصة .

ويقول الشيخ رشيد رضا : إن إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف فى الكتاب والسنة ، وأما إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة فيؤخذ

من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام. ومن حديث الشيخين فى المحدثين وكون عمر منهم — والمحدثون بفتح الدال وتشديدها : الملهمون . ومن حديث الترمذى والنسائى وابن حبان وهو « إن للشيطان لمسة بابن آدم وللملك لمسة . فأما لمسة الشيطان فإيعاز بالشر . وتكذيب بالحق . وأما لمسة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق .

ثم قال الشيخ محمد عبده : وذهب بعض المفسرين مذهبًا آخر فى فهم معنى الملائكة : وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات . وخلق حيوان . وحفظ إنسان . وغير ذلك : فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة . وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة . فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان ، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوى يظهر أثرها فى الطبيعة ، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكًا ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوى طبيعة أو ناموسًا طبيعيًا لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ، فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب ، يقول لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوى لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس ؟

« وكل يقر بشىء غير ما يرى ويحس ، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه . وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب ، وقد اعترف بما غيب عنه ، لو قال : أصدق

بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون .

« يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو الشر ، بأن فى نفسه تنازعاً كأن الأمر قد عرض على مجلس شورى ، فهذا يورد وذلك يدفع ، واحد يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشىء الذى أودع فى أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً ، وهى فى الحقيقة معنى لايدرك كنهه ، وروح لاتكنه حقيقتها ، لايبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الأسماء ، فإن التسمية لاحجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع » .

ثم قال الشيخ رشيد رضا تعقيباً على رأى شيخه هذا :

إن الإمام الغزالى سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال : إنه سمى ملكاً فإنه بعدماقسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال : « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث لابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول مهام الخير يسمى توفيقاً ، والذى يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواء وخذلاناً ، إن من المعانى المختلفة ما يحتاج إلى أسام مختلفة » .

وقد أورد ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن عبد الله بن عباس أنه

قال : لم تقاتل الملائكة فى يوم من الأيام سوى يوم بدر . وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون » .

وعن مجاهد أنه قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر .

وقال آخرون إن الله عز وجل . إنما وعدهم يوم بدر أن يمدهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه . واتقوه باجتناب محارمه . أن يمدهم فى حروبهم كلها . فلم يصبروا ولم يتقوا إلا فى يوم الأحزاب . فأمدهم حين حاصروا قريظة .

وقال آخرون بنحو هذا المعنى . غير أنهم قالوا : لم يصبر القوم ولم يتقوا ولم يمدوا بشىء فى أحد .

عن عمرو بن دينار عن عكرمة سمعه يقول : (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) ، قال : يوم بدر . قال فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ولو مدوا لم يهزموا يومئذ .

وعن الضحاك قوله: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف من الملائكة مسومين ؟ كان هذا وعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ففر المسلمون يوم أحد ، وولوا مدبرين ، فلم يمدهم الله .

ثم قال ابن جرير : وأما الذين قالوا كان ذلك يوم بدر ، بسبب (كرز بن جابر) فإن بعضهم قالوا لم يأت كرز وأصحابه إخوانهم من المشركين مدداً لهم ببدر ، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته ، لأن الله عز وجل إنما وعدهم أن يمدهم بملائكته إن أتاهم كرز وأمد المشركين من فورهم ، ولم يأتهم المدد .

وقد مر بنا رأى الشيخ محمد عبده ، ورأى تلميذه الشيخ رشيد رضا فى حقيقة الملائكة وطبيعة دورهم ، ونضيف إليه ما جاء فى تفسير مجمع البحوث الإسلامية المسمى بالتفسير الوسيط ، من أن الملائكة

جمع ملك : وهم ذوات نورانية . خلقوا لطاعة الله فيما يأمرهم به ، ولهم قدرة التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة . وهذا كان الرسل يرونهم . وهذا مذهب أكثر المتكلمين . وقال الحكماء . هم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة بالحقيقة .

ويتفق القرطبي والطبرى فى أن أصل لفظ (ملاك) مألك : مشتق من فعل (لاك) أى أرسل . وأرسلت إليه مألكة . وألوكًا : أى رسالة . فحيث الملائكة ملائكة بالرسالة . لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ، ومن أرسلت إليه من عباده .

وجاء فى القرطبي أيضًا فى شرح الآية الأولى من سورة فاطر : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جعل الله الملائكة رسلا . قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء : وقال السدى : إلى العباد برحمته ونقمته .

بقى أن نتأمل فى جميع ما سلف من النصوص ، وفى آيات القرآن الكريم ، التى ورد فيها ذكر للملائكة ومن كل هذا يبين لنا :

أولا : أن القرآن الكريم خلا خلوًا تامًا من وصف الملائكة من حيث الهيئة والطبيعة والعدد إلا فيما جاء فى الآية الأولى من سورة فاطر ونصها الذى مر بنا : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء) والمفسرون متفقون تقريبًا ، على أن أجنحة الملائكة ليست من قبيل ما نعرفه من أجنحة الطيور . فلا هى من الريش ، ولا هى بالبداهة من اللحم والعظم .

ثانيًا : ليس فى القرآن الكريم نص يعنى مباشرة ، أو يوحى بأن للملائكة دخلا أو صلة بحياة البشر ، وبما يضطربون فيه من أمور معاشهم ، أو تنافسهم على الرزق ، أو تحصيلهم للعلم ، أوسعيهم للخير ، أو انحرافهم إلى الشر .

فالملائكة أرسلوا فى الماضى إلى الأنبياء . كما أرسل جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكما أرسلت الملائكة إلى مريم لتقول لها إن الله اصطفاها . وإن الله يبشرها بكلمة منه . وكما نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب . وكما أرسلت الملائكة إلى إبراهيم ولوط .

فالملائكة لا يرسلون إلى أفراد الناس ؛ ولم يرسلوا قط فى الماضى على ما أثبته القرآن الكريم .

ثالثًا : بل الثابت فى القرآن أن الناس ، فى عهود الرسالات . والنبوات طلبوا أن يرسل إليهم ملائكة بدلا من الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله من أبناء آدم ممن يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؛ وكانت حجة الكافرين أن إرسال الملائكة بالرسالة . وتكليفهم أعباء النبوة أقطع فى صحة هذه الرسالة وآكد لصدق الرسول . فأبى الله إلا أن يكون رسله من الناس ، يخاطبون المرسل إليهم بلغتهم ، ويحاجونهم بحجج العقل ، لا بالقهر الذى لا يكون للمؤمنين المصدقين فضل فيه ، كما لا يكون للمكذبين المعارضين باب للتوبة ، أو سبيل للمغفرة : ففى سورة الأنعام مثلا : (ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) ، ثم فى سورة الإسراء تبرير لعدم إجابة المعاندين إلى ما يطلبونه من أن يكون الرسل ملائكة (لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا) فالرسول يكون من طبيعة المرسل إليهم ، ولذلك جاء فى سورة الأنعام (ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) .

ولذلك أغلق فى باب الدجاجلة والمشعوذين باب الادعاء بأنهم رأوا ملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين ، أو أن الملائكة تحدثت إليهم ، أو أشارت عليهم ، أو اتصلت بهم .

رابعًا : والمسلمون — وإن كانوا مأمورين أن يؤمنوا بوجود الملائكة — لم يطلب منهم أكثر من هذا التصديق ، فليسوا مأمورين بأن يتوجهوا

إليهم بصلاة أو عبادة . أو أن يلتمسوا منهم من دون الله عوناً أو إرشاداً أو رعاية — فهم من مخلوقات الله . وعباده . والآيات على ذلك كثيرة ففى سورة النجم : (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً) ؛ وفى سورة آل عمران : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) ؛ وفى النساء : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) .

خامساً : بل إن قصة خلق آدم قاطعة الدلالة بأن الله فضل آدم على الملائكة ، إذ أمرهم بأن يسجدوا له ؛ وإذ خصه دونهم بجعله «خليفة» وإذ ميزه عنهم جميعاً بأنه علمه وحده الأسماء كلها ، ثم عرضها على الملائكة فعجزوا أن يجاروه فى علمه ؛ وأن يبلغوا مبلغه فى الاستعداد للمعرفة على ما به من ضعف وعلى ترديه فى الخطيئة ، وحبه لسفك الدماء .

سادساً : أن القرآن لم يرو غير واقعة واحدة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعد الله فيها الرسول والمسلمين الذين حاربوا معه الكفار أن يعينهم بمدد من الملائكة . وقد اختلف المفسرون فى فهم ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الصدد ، فمنهم من ذهب إلى القول إن الملائكة لم يحاربوا فى بدر ولا غيرها ، ومنهم من قال إنهم نزلوا فى بدر ، وإنما كان نزولهم للتثبيت والدعاء والتكثير ، ومنهم من قال إنهم لم يحاربوا إلا فى بدر ، وآخرون قالوا بل فى موقعة الأحزاب .

ولكن الجميع متفقون على أن الوعد بنزول الملائكة ، هو بشرى بالنصر لاسببه ، فالنصر فى جميع المعارك ، له أسبابه التى بينها القرآن ولقنها الرسول للمسلمين ، والتى لخصتها الآية : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فالنصر من عند الله ، ولكن الله لايمنحه إلا لمن يستحقه ، ولايستحقه إلا من تهيأ له ، من طاعة لأحكام الدين التى هى سنن الكون السليمة ، وقواعد الحياة الصحيحة

وأساليب الجهاد الرفيعة . ومنها قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) . ومنها قوله عز وعلا : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص) : ومنها أمره الكريم : (انفروا خفافًا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) . ومنها وعده الصادق : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) : ومنها تحذيره : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

وجملة القول أن فى الدعوة إلى الإيمان بالملائكة ليس فيه ما يحرج صدر أبناء العصر ولا عقولهم . فهم يسمعون أن الإسلام دين قائم على العقل . وأنه ليس فيه شىء غامض . فهو واضح كل الوضوح بين إلى أقصى الغاية . وأنه لا مجال فيه للمتجرين بالأوهام والمروجين لها ، ولا تعارض بين أحكامه وآيات كتابه . وبين ما يؤدى إليه العلم ، وما يأمر به العقل . وأن عناصر الغيب الذى يدعو إليه . لا يرفع عن عاتق الإنسان مسئولية تكييف حياته . وتقرير مصيره . والسعى الدائب للكشف عن حقائق هذا الكون وتسخيرها . والانتفاع بها ومسابقة الأقوياء فى حلبات الفكر والبحث . وفى التسلح بماديات الحياة . بعد التحصين بمعنوياتها التى هى الأصل الأصيل لكل قوة ، والباعث الأول على تحقيق كل عزة ومنعة .